المعيار الأخلاقـــي عند النقّاد في العـصـر العباســي

أ. عبد الرحيم حسن محمد سليمان ـ كلية التربية ــ الزاوية .
جامعة الزاوية

تمهيد :

المقصود بالمعيار الأخلاقي هو أن ينظر إلى النص الأدبي نظرة قيمية ، فإذا كان يحمل قيما أخلاقية سامية كان لها أثر في قبول النص والرفع من شأنه من جهة النقد ، وأما إذا كان لايحمل تلك القيم أو كان يحمل ما يخالف الأخلاق كالغزل الفاحش أو الهجاء المقذع أو ما يمس العقيدة الإسلامية ؛ فإن ذلك يكون سببا في هبوط قيمة النص الأدبي ، وهذه القضية اختلف فيها أهل النقد والبلاغة في العصر العباسي اختلافا كبيرا تباينت آراؤهم وتشعبت في ذلك .

وأغلب هذه القضايا أثيرت بعد ظهور الإسلام بدافع المحافظة على الأخلاق والقيم الإسلامية وأن يسهم الأدب في نشر هذه القيم في المجتمع ونتجت عن ذلك مدرستان :

الأولى مدرسة الشعر للشعر ، وهذه ترى أن الشعر متعة فنية ليس بالضرورة أن تحمل قيمة أو ترشد إلى خير، فهو ليس موعظة ولا خطبة ولا شرح إسلام إنما هو متعة للمتلقي ولا يعيبه إذا خلا من أي قيمة تخدم المجتمع أو تصلحه، وربما يكون أنصار هذه المدرسة ممن لا يقيمون وزنا للقيم أو الأخلاق ويحبون شعر الخلاعة والمجون وإن جاوز الحد في احترام قيم المجتمع ، فالمعروف من حمل لواء هذا اللون من الشعر هم الشعراء الخلعاء الذين جاوزوا حدود الفطرة في الغزل فاتجهوا إلى ما عرف في العصر العباسي بالغزل بالغلمان كأبي نواس وأضرابه ، ووافقهم من النقاد من ضاق ذرعا بالشعر الذي يخلو من القيمة الفنية ولا يعدو كونه خطبة أو موعظة أوحكمة .

الثانية مدرسة الشعر للمجتمع أي أن الشعر والأدب عموما لا بد أن يخدم المجتمع ويحمل في طياته قيما تصلحه وتنفعه وربما حجتهم في ذلك أن النبي- صلى الله عليه وسلم - وجه الشّعراء في عصره كحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة إلى هجاء أعداء الإسلام وحرص أن يكون الهجاء صادق فقال لحسان وألق أبا بكر يعلمك الهنات ، أي يريك الثغرات في أنساب المشركين فيكون هجاؤك حقيقة لا كذبا ، وكذلك كان الشعر الجاهلي يحمل هموم القبيلة ويجسد بطولاتها وانتصاراتها ويهجو أعداءها

، وربما استأنسوا بأسلوب القرآن الكريم الذي يحمل النصح والخير للمتلقي في قالب فني معجز ومن أشهر القضايا التي شغلت البلاغيين في ذلك الوقت هي : قضية الصدق والكذب ، وقضية المبالغة والقصد ، وقضية العفة والمجون.

أولًا ـ الصدق والكذب :

الصدق والكذب في الشعر من الأمور التي طالما أثيرت لسبب أو آخر، بل كان موضع خلاف بين الشعراء أنفسهم فمنهم من قال:

وإن أشعر بيت أنت قائله   بيت يقال إذا أنشدته صدقا[1]

بينما قال البحتري من البحر :

كلفتمونا حدود منطقكم   في الشعر يكفي عن صدقه كذبه[2]

والصدق في نظر بعض النقاد على أنواع متعددة ، ولكن ما نركز عليه في هذا البحث هو ما يتعلق بالنقد الأخلاقي أو ما يسمى بالصدق الأخلاقي (وهو مالا مدخل فيه للكذب بنسبة الكرم إلى البخيل أو نسبة الجبن إلى الشجاع إنما نقل الحقيقة الأخلاقية كما هي [3]) وأول من استخدم هذا المعيار هو الخليفة الراشد عمر بن الخطاب عندما تحدث عن زهير بن أبي سلمى فقال : (كان لا يعاضل بين الكلام ولا يتتبع حوشيه ولا يمدح الرجل إلا بما فيه)[4] وفي هذه القضية نجد مواقف النقاد متباينة :

فابن طباطبا العلوي يرى وجوب الصدق في الشعر [أي : عدم مخالفة الواقع] فيقول : (فإن من كان قبلنا في الجاهلية الجهلاء ، وصدر الإسلام كانوا يؤسسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد فيها للصدق فيها مديحا وهجاء وافتخارا ووصفا .. إلا ما احتمل الكذب فيه من حكم الشعر من الإغراق في الوصف والإفراط في التشبيه[5]) وقد أفرد في كتابه عيار الشعر عنوانا تحدث فيه عن المثل الإخلاقية عند العرب ، وقال في علة حسن الشعر:(والفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق والجائز المعروف المألوف ويتشوف إليه ويتجلى له ويستوحش من الكلام الباطل والمحال المجهول المنكر وينفر منه ويصدأ له[6]) فهو يجعل الصدق والقيمة الأخلاقية من معايير الشعر .

وأما قدامة بن جعفر فيذهب إلى وجوب الصدق في المديح ، فالمدح الجيد عنده هو الصادق وأن يكون بالصفات الأربع العفة والشجاعة والعدل والعقل ، فقال بعد أن أثنى على مقولة عمر بن الخطاب في زهير بن أبي سلمى ، أنه لا يمدح الرجل إلا بما يكون للرجال (فكذا يجب أن لايمدح شيء غيره إلا بما يكون له ، وفيه بما يليق به أولا ينافره)[7] أما عن مدحه لعبارة أعذب الشعر أكذبه التي أوردها في كتابه فهو يعني بها المبالغة ووصفها بأجود المذهبين ، وهذا النوع من الكذب لا يلقى قبولا عند بعض الأدباء فقد ورد أن أحدهم دخل على بشار بن برد وهو نائم وكان بشار ضخم الجثة فقال له : يا أبا معاذ من القائل :

إن في بردي جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم

قال : أنا . قال فما حملك على الكذب ؟ والله إني لأرى لو بعث الله الرياح التي أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من موضعك)[8] .

أما العسكري فلا يقيم للصدق أوالكذب وزنا في الشعر ونقده ويقول : (إن أكثره قد بني على الكذب والاستحالة من الصفات الممتنعة ، والنعوت الخارجة عن العادات ، والألفاظ الكاذبة من قذف المحصنات ، وشهادة الزور، وقول البهتان ... وليس يراد منه إلا حسن اللفظ وجودة المعنى ... وقد قيل لبعض الفلاسفة : فلان يكذب في شعره فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام ، والصدق يراد من الأنبياء[9]) ، والكلام هنا صريح في الكذب المخالف للحقيقة وليس المبالغة والغلو، فالعسكري لا يضع الصدق معيارا لنقد الشعر إنما يعتمد المعيار الفني من حسن اللفظ وجودة المعنى .

أما ابن رشيق القيراوني فهو لا يجعل الصدق أوالكذب معيارا لنقده ، بل يعتبر الكذب وإن خالف الحقيقة مما يحسن في الشعر فيقول (ومن فضائله أن الكذب الذي اجتمع الناس على قبحه حسن فيه) والكذب الذي أجمع الناس على قبحه هو الكذب المخالف للحقيقة ويؤكد مقصده هذا استشهاده بقول كعب بن زهيرللرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :

لا تأخذني بأقوال الوشاة فلم أذنب ولوكثرت عليَّ الأقاويل

فقال : (ولم ينكر عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - قوله ، وما كان ليوعده على باطل ؛ بل تجاوز عنه [10]) ، فكلام كعب مخالف للحقيقة وليس مجرد مبالغة ومع ذلك استحسن النبي قوله وعفا عنه .

أما الإمام عبد القاهر الجرجاني فهو يفرق بين النص وبين أثره ورسالته فهو يعتبر أن الكذب لا ينقص ولا يؤثر في النص من حيث الجودة والإبداع ، فهو يبين مراد القائلين بأن " خير الشعر أكذبه فيقول (لأن الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلا ونقصا ، وانحطاطا وارتفاعا ، بأن ينحل الوضيع صفة هو منها عارٍ ، أويصف الشريف بنقص وعار ، فكم جواد بخَّله الشعر وبخيل سخَّاه ، وشجاع وسمه بالجبن وجبان ساوى به الليث ... ثم لم يعتبر ذلك في الشعر نفسه حيث تنتقد دنانيره وتنشر دبابيجه ، ويفتق مسكه فيضوع أريجه)[11] فهو يشير بشكل واضح أن الشعر المخالف للواقع لا ينتقص منه ذلك ولا يؤثر في جودته كشعر، وكأنه ينظر للنص نظرة من داخله ونظرة من خارجه وأن الكذب لا يؤثر في داخل النص ولا يعتد به نقدا بل النظر هنا للعناصر الفنية في النص فإن حسنت حسن النص وإن قبحت قبح النص ، أما النظرة من خارجه فقد تؤثر على قائله فتصمه بالكذب أو تجلب له عقوبة كما حدث للحطيئة عندما هجا الزبرقان بن بدر فعاقبه الفاروق بعد حكم حسان بأنه سلح عليه ، ولكن لم يؤثر ذلك في النص نفسه وهذا ما ذهب إليه الجرجاني ، فقد قال عن الذين يتبنون مقولة " خير الشعر أصدقه " بأنه يراد به مادل على حكمة يقبلها العقل أو أدب أو موعظة تروض جناح الهوى أو يقصد بها الصدق في مدح الرجال كما قيل عن زهير أنه لا يمدح الرجل إلا بما فيه [12] .

وخلاصة القول هنا أن المرفوض عند أغلب النقاد هو مخالفة الواقع كنسبة البخل للكريم أو الشجاعة للجبان (نحو أن يصف الحارس بأوصاف الخليفة ويقول للبائس المسكين إنك أمير العراقين) وهذا النوع وإن كان لا يؤثر فنيا في النص الشعري ، إذا حسن لفظه وصوره وموسيقاه ، لكنه يؤثر في مضمون النص ورسالة النص إذا جاوز الحقيقة بظلم أو تجن كما فعل المتنبي بهجائه لكافور الإخشيدي فالناظر للنص من الجانب الفني بما يناسب الهجاء والغرض منه وهو التقبيح والتنفير والسخرية ، يرى أن النص مبدعا بما أوتي المتنبي من موهبة وقدرة ، ولكن إذا نظرنا إلى الحقيقة وجدنا أن كافورا كان شهما وشجاعا مجاهدا حسن السيرة ، كما وصفه المؤرخون[13]، فيحكم على صاحب النص بأنه تجنى وظلم وكذب على خصمه، ووصفه بما ليس فيه ،

وعلى النص بأنه مخالف للحقيقة ومزيف لها ، كما تشاهد في عصرنا فلما فنيا مبدعا متقنا في مشاهده وإخراجه لكنه يقلب الحقيقة ويزيف التاريخ فيكون ذلك نقيصة في النص وصاحبه ، وهذا هو الكذب المذموم في الشعر والأدب لا التخيل والمبالغة في الوصف .

ثانيا ـ القصـــــد والمبالغة : القصد في اللغة يعني الاعتدال والتوسط في الشيء قال تعالى (واقصد في مشيك) ومن معانيه الاستقامة قال تعالى : (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر) وفي الشعر يقصد به الاعتدال في الوصف فلا تفريط ولا إفراط ، وهو نقيض المبالغة.

والمبالغة في اللغة تعني الإفراط في الأمر ويقال جاوز الحد ، يقال بالغ في المديح إذا أفرط فيه . والمبالغة عند البلاغيين تعني (أن تدعي لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدا مستحيلا أو مستبعدا .. ومن أنواعها الإغراق والغلو ومنهم من يسميها الإفراط في الصفة[14]) وهي قضية شغلت البلاغيين عندما تعرضوا لقضية الصدق والكذب فمنهم من عد المبالغة في الوصف أو الغلو من الكذب ، وأن عدمها هو القصد ، واختلفت آراؤهم بين مجيز ومعيب ومستحسن !

فمن المجيزين : ابن طباطبا العلوي لكنه يقتصد في قبول المبالغة في الشعر فهو يشترط أن تكون الزيادة والنقصان يسيرين غير محوجين لما يستعان بهما وأن تكون الألفاظ المزيدة غير خارجة من جنس ما يقتضيه ، بل تكون مؤيدة له وتزيد في رونقه وحسنه[15]؛ ولذلك نراه يعيب على كُثيِّر عزة قوله :

ألا ليتنا ياعز ـمن غير ريبة ـ بعيران نرعى في الخلاء ونعزبُ
كلانا به عـر فمن يرنـــا يقل على حسـنها جـــراب وأجـربُ
نكون لذي مال كـــثير مغـفل فلا هو يرعـــانا ولا نحــن نطلبُ

فيقول : (أفرط إفراطا معيبا ... فأحال الحب إضرارا وإهلاكا وإخراج الصورة من حد المقبول والإعجاب إلى البغض والنفور)[16] وابن طباطبا محق في رفضه لمثل هذه المبالغة التي أساءت إلى الصورة ، وخرجت بها من التحسين إلى التقبيح ، ويقال أن عزة نفسها قالت له لقد أردت بي الشقاء الطويل ، ومن المنية ما هو أوطأ من هذه الحال ، وفد أفرد في كتابه فصلا تحت عنوان الأبيات التي أغرق قائلوها في معانيها.

ومن الذين قالوا بالقصد في المبالغة القاضي الجرجاني فهو يرى أن للمبالغة حدودا ورسوما متى وقف عندها الشاعر ولم يتجاوز الوصف حدها جمع القصد الاستيفاء وسلم من النقص والاعتداء فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية ، وأدته الحال إلى الإحالة ، وإنما الإحالة نتيجة الإفراط وشعبة من الإغراق ، ثم أورد أمثلة كثيرة لهذا التجاوز والإفراط ومنها قول المتنبي :

كفى بجسمي نحولا أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني[17]

وله بيت آخر في هذا الإفراط وهو قوله :

روح تردد في مثل الخلال إذا أطارت الريح عنه الثوب لم يبنِ[18]

فهو لفرط المبالغة يخبرك بأن ما تراه هو الثوب فقط فإذا طار الثوب انعدمت الرؤية إلا إذا خاطبك فإنك تسمع صوتا يخبرك أن هاهنا رجل ، وهاتين الصورتين لا يتصورها العقل أن تحدث ، ومع ذلك هي متوافقة مع الغرض المراد من الصورة وهي النحول الشديد فأوصله إلى هذه الدرجة بهذا الغلو.

أما ابن رشيق القيرواني فيفهم من كلامه السابق عن الصدق والكذب أنه مع المبالغة وأنها من محاسن الشعر فهو ينكر على من يرفض المبالغة فقال (ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه وعيبت الاستعارة ،إلى كثير من محاسن الشعر)[19] ثم استشهد بآية قرآنية وهي قوله- تعالى - : ﴿ **سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ** ﴾ وعلق بقوله : (فجعل من يسر بالقول كمن يجهر به والمستخفي كالسارب بالنهار، وكل واحد منهما أشد مبالغة في معناه وأتم في وصفه[20]) وحين تكلم عن الغلو واختلاف النقاد فيه أشار إلى أن الغلو عنده مقبول مالم يخرج عن الحق وثبت بالدليل ، واستشهد بقوله - تعالى ﴿ **يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ** ﴾ [21] وبيّن أن الغلو والإغراق عنده مقبول إذا كان على الندرة ولم يكثر منه الشاعر في قصيدته ، بل كان بيتا في قصيدة مثلا[22]. والملاحظ أن ابن طباطبا والقاضي

الجرجاني وابن رشيقمن الذين يستحسنون المبالغة لكن بشرط القصد فيها وعدم الإكثار منها وعدم الغلو فيها .

أما قدامة بن جعفر فيرى أن الغلو وهو أعلى درجات البالغة بأنه أجود الشعر لأنها تقوم على التخييل ، وهي التي تحدث التأثير بالمتلقي من حيث تعظيم الشيء أو تحقيره عن طريقها فيقول : (إن الغلو عندي أجود المذهبين ، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم من الشعر قديما وحديثا حتى قال بعضهم أعذب الشعر أكذبه)[23] والمقصود بأكذبه هو المبالغ في وصفه وتصويره حتى يتجاوز الحقيقة وليس المقصود المكذوب الذي لا أساس له ، ثم أورد في كتابه قول أبي نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى لتخافك النطف التي لم تخلقِ

وقال هذا إفراط في الغلو ... ، وقد أحسن أبو نواس حيث أتى بما ينبئ عن عظم الشي الذي وصفه) فعلى رأيه كلما بالغت في الوصف كان أبلغ في التأثير وأجود في التصوير ، وإخافة الممدوح لأهل الشرك حقيقة ، ولكن أبا نواس بالغ في الوصف والتصوير حتى جعل الصورة خيالية وليست واقعية لكنه لم يكذب في حقيقة الممدوح ، وأظن أن أغلب النقاد يعنون بالكذب هو المبالغة في التصوير الخيالي وليس الكذب ضد الصدق .

أما أبو هلال العسكري فهو من الذين يرون أن المبالغة تزيد الشعر حسنا ويقول في تعريفها (المبالغة أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته ، وأبعد نهاياته ، ولا تقتصر في العبارة عنه أدنى منازله وأقرب مراتبه) ويسوق أمثلة من القرآن الكريم ومن الشعر في الفصل الحادي عشر والذي عنون له بعنوان " في المبالغة " ويشترط لها جودة الألفاظ ومناسبتها وجودة التصوير ، وهو يفرق بين المبالغة والغلو ويرى أن الغلو تجاوز للحد ويقبل منه ما قارب الواقع لذلك يعد من عيوب الغلو أن يخرج إلى المحال أو يشوبه سوء الاستعارة وقبيح العبارة وعد قول المتنبي هذا من الغلو الغث :

فتى ألف جزء رأيه في زمانه أقل جزيء بعضه الرأي أجمع[24]

ويقول : (ينبغي أن يكون التشبيب دالا على الصبابة وإفراط الوجد والتهالك في الصبوة)[25]

أما عبد القاهر الجرجاني فيشترط صلاح الاستعارة لقبول المبالغة فيقول : (ومتى صلحت الاستعارة فالمبالغة فيها أصلح ، ولسان الحال بها أفصح)[26] وصلاح الاستعارة هي التي تبرز الفكرة وتظهر الصورة في مظهر تعشقه النفوس ويكون مناسبا للغرض المراد من حيث التحسين أو التقبيح.

وخلاصة القول في المبالغة يلاحظ أن أغلب النقاد مع المبالغة وأنهم يرونها أجود وأفضل من عدمها واختلفوا في شرط الاعتدال فيها ، فمنهم من يشترط ذلك ومنهم من يرى الغلو فيها أفضل ؛ ويرجع ذلك إلى اختلاف الأذواق بين ناقد وآخر فعلى سبيل المثال تباينت أقوالهم في بيت أبي نواس :

أخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق

فابن رشيق يراه غلوا يعيب البيت ، وابن وكيع التنيسي وقدامة بن جعفر يريانه حسنا وبلوغا للغاية وأنه أتى بما ينبئ عن شيء عظيم ، وقد كانت المبالغة في شعر الأولين لكن ربما كان هذا لتأثر بعض النقاد في هذا العصر بالروح الإسلامية والتورع في طلب الصدق والبعد عما سواه .

ثالثا ـ العفة والمجون :

العفة هي : الكف والامتناع عما لا يحل وتجنب السيء من القول والفعل وعفيف اللسان لا يتكلم إلا كلاما طيبا [27] ، ويقصد بها الأدب الذي يخلو من الوصف المحرم والغزل الفاضح ووصف الخمر أو الهجاء المقذع .

المجـــون : له معان كثيرة في اللغة ، منها قلة الحياء ، والمزاح المصحوب بقلة الحياء ، وصلابة الوجه ، واللهو والعبث [28] ويوصف الأدب الذي يشتمل على معان تخدش الحياء كالغزل الفاضح ووصف الخمر والفجور .

في هذه الفقرة نتعرف فيها على آراء نقاد العصر من حيث اعتبار العفة والمجون ، أو معتقد أو مذهب الشاعر ، معيارا يحكم به على العمل الأدبي بالجودة أو الضعف !

اختلف النقاد في هذا العصر في هذا الأمر بين من يعتبره معيارا مؤثرا في جودة العمل الأدبي أو ضعفه ، ومنهم من يجعل معتقد الشاعر أو مذهبه سيفا مسلطا عليه يستخدمه متى شاء برغم أنه لا يعتبره معيارا للجودة ، أوالرداءة .

من الذين شهروا هذا السيف ، سيف الأخلاق والمعتقد في وجه الشعراء الأصمعي والذي يقول " الشعر بابه الشر " إلا أنه شهر معيار الخلق والدين في وجه الشاعر السيد الحميري فقال بعد أن تعجب لجودة شعره : (قبحه الله ّ ما أسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه ، ولولا ما في شعره ما قدمت عليه أحدا من طبقته)[29] وكان السيد الحميري شيعيا رافضيا يرى برأي الكيسانية في رجعة ابن الحنفية ويقول بتناسخ الأرواح وقيل أنه اجتمع بالإمام جعفر الصادق فبين له ضلالته فتاب بعدها والله أعلم[30] فهو يعتبر شعره من المعيار الفني أنه عجيب لكنه يرفض تقديم الشاعر على شعراء طبقته بسبب معتقده !

والأصمعي نفسه يقول عن لبيد بن ربيعة (ما أحب إلي شعرا من لبيد بن ربيعة لذكره الله - عز وجل - ولإسلامه ، ولذكر الدين والخير ، ولكن شعر رحى بذر)، أي: أن شعره من الناحية الفنية ذو جعجعة وليس وراءه شئ كبير ، وقد سئل عنه أفحل هو؟ فقال : لا . ومع ذلك يقول إنه من أحب الشعر إليه [31] ويعلل ذلك بالجانب القيمي الأخلاقي ، ولبيد في جاهليته من شعراء المعلقات ومن فحول الشعراء وكأن الأصمعي هنا لا يعتبر الأخلاق والقيم معيارا تقاس به جودة الشعر من رداءته لذلك حكم على شعر لبيد بالرداءة والجعجعة ونفى عنه الفحولة في إسلامه ومع ذلك استخدم المعيار في تفضيل لبيد عن غيره وهو الذي امتدح أبا نواس ووصفه بأنه أشعر أهل زمانه مع مجونه .

كذلك فعل ابن سلام مع الأحوص الأنصاري فوضعه في الطبقة السادسة وقدم عليه ابن الرقيات وجميل ونصيب فقال الأصفهاني معلقا على صنيع ابن سلام الجمحي (والأحوص لولا ما وضع به نفسه من دنيئ الأخلاق والأفعال أشد تقدما منهم عند جماعة الحجاز وأكثر الرواة وهو أسمح طبعا وأسهل كلاما وأصح معنى منهم ولشعره رونق وديباجة صافية وحلاوة وعذوبة ألفاظ ليست لأحد منهم)[32] وكان الأحوص ماجنا فاحش الهجاء وكان يتحرش بنساء المدينة بشعره وجلد ونفي على يد سليمان بن عبد الملك بسبب تفحشه وتشبيبه [33]

الصنف الثاني من النقاد الذين لا يضعون الأخلاق ولا المعتقد معيارا لجودة الشعر أو رداءته ومن هؤلاء الجاحظ فلا يعتد بمعيار الأخلاق هذا فيقول عن أبي نواس (لا أعرف بعد بشار مولدا أشعر من أبي نواس)[34]

ومن هذا الصنف ابن المعتز فيقول في رده على رسالة محمد بن القاسم الأنباري بشأن شعر أبي نواس (لم يؤسس الشعرَ بانيه على أن يكون المبزرُ في ميدانه من اقتصر على الصدق ، ولم يقر بصبوة ولم يرخص بهفوة ... ولو سلك هذا المسلك لكان صاحب لوائه من المتقدمين أمية بن أبي الصلت وعدي بن زيد)[35] وهما شاعران نصرانيان بينما كان أغلب شعراء العرب في الجاهلية مشركين.

ومن الصنف الثاني القاضي الجرجاني حيث يقول (لو كانت الديانة عارا في الشعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعرى وأضرابهما من تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكما خرسا وبِكاءً أي مفحمين؛ ولكن الأمرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر)[36] ويعجب الجرجاني ممن غض من شعر المتنبي من النقـــاد لأنه وجد به أبياتا استدل بها على ضعف عقيدته ومنها قوله :

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد[37]

ومثل هذا الناقد لم ينظر للشعر نظرة فنية للنص ، وإنما حكم عليه من ناحية دينية وهذا الحكم يعتد به في مجاله الشرعي إذا طلب الحكم على قول من ناحية شرعية ؛ أما الحكم بعدم قبول النص من الناحية الفنية باستخدام الدين فهو استعمال للمعيار في غير موضعه ، فإذا طلب منك الحكم على طعام ما هل هو جيد أم رديء من حيث الطعم فتحكم عليه بهذا المعيار أما أن تقول هو طعام رديء لأنه مغصوب من صاحبه ! فهذا حكم شرعي وليس حكما فنيا .

وقد استخدم ابن وكيع الضبي هذا المعيار في نقده للمتنبي في قوله :

يا أيها الملك المصفي جوهرا من ذات ذي الملكوت أسمة من سما
نور تظـاهر فيك لاهـوتـيه فتكـاد تعلم علـم مـا لـن يعلمـا

فقال عنه : هذا مدح متجاوز وفيه قلة ورع ، وقال في موضع آخر يهاجم المتنبي لأنه يحب الخمرة ولا يشربها [38]. وهذا كما نلاحظ هو حكم شرعي أطلق على المعنى أو الشاعر ولا علاقة له بالمعيار الفني للنص من حيث الجودة أو الرداءة .

أما العسكري فهو يفرق بين شعر المجون والتشبيب وبين ما يمس العقيدة، فالأول عنده مقبول بل عاب النسيب إذا كان فيه ما يدل على الإباء والعزة ، بل يجب أن يسرف في الوجد ، لكنه فيما يمس العقيدة وأركان الدين فهو يعيب ذلك أشد العيب في مثل قول أبي نواس :

يا أحمد المرتجى في كل ثانية قم سيدي نعص جبار السماوات

فوصف قوله هذا بالبشع ، وقال هذا مع كفره ممقوت [39] ويلاحظ أن العسكري نقد البيت لا صاحبه مع مخالفته للعقيدة الإسلامية مع خلوه من أي إضافة فنية أو أي إبداع فني فوصفه بالبشع من الجانب الفني ووصفه بالكفر والمقت من الجانب الشرعي فللإسلام حقه من الإجلال الذي لا يسوغ الإخلال والمعاني أوسع من أن تضيق بالشاعر حتى يلجأ إلى التهاون في تعظيم الله ورسله . ولنا في القرآن الكريم أسوة في تصوير الجوانب السلبية في الواقع أو المجتمع (فهو حين يصف لنا الجانب السلبي لامرأة العزيز ومراودتها ليوسف عليه السلام ، فهو يصور مشهدا من الإغراء والغواية ولكن لا إثارة ولا تلذذ ولا إفساد)[40] ، وعلى هذا الأساس كان الخلفاء ينهون عن التشبيب بالنساء لا الغزل لما في الثاني من تصوير المشاعر بعيد عن الإسفاف ، وما في الأول من إفساد .

الخاتمة :

بعد استعراض آراء النقاد في استخدام هذا المعيار في الحكم على النص الأدبي أو على صاحبه نخلص إلى التالي

1- في قضية الصدق الكذب أن الكذب المذموم عند أغلب نقاد هذا العصر هم القول المزيف للحقيقة الذي يجعل الباطل حقا والحق باطلا وإن كان هذا النوع لا يؤثر في النص فنيا إنما يؤثر على مضمونه وبالتالي رفضه من المتلقي وانعدام الأثر فيه ، أما الكذب بمعنى التخييل والمبالغة في الوصف والتصوير بغية التزيين أو التقبيح فذلك محمود ومطلوب ويظل المعيار الصحيح للنص الأدبي من داخل النص وبما يتوفر

عليه من عناصر فنية مناسبة للغرض الذي قيل فيه النص ويبقى كل ما هو خارج النص لا يحكم به على النص فنيا.

2- في قضية المبالغة فإن اغلب النقاد في هذا العصر يرون أن المبالغة تزيد الشعر جمالا وقوة تأثير وإن كان بعضهم اشترط أن يقتصد فيها فلا يفرط فيها فتخرج إلى الغلو غير المقبول، وهذا يرجع إلى طبيعة الناقد وذوقه فمنهم من يقبل ذلك ومنهم من يرفضه وليس الأمر خاضعا لمعيار محدد يمكن أن يقاس عليه ولعل بعضهم قاس على المبالغة في القرآن الكريم وقد استعملت فيها عبارة (تكاد) كما في قوله تعالى (تكاد السموات يتفطرن منه) وعلى كل فنخلص إلى أن المبالغة في الشعر تزيده حسنا وجمالا وتأثيرا والقصد فيها وعدم الإفراط أولى .

3- أما قضية العفة والمجون فإن أغلب النقاد على أنها ليست معيارا نقديا للجودة أو الرداءة وإن كان بعضهم قد استخدمها في نقده بصفة شخصية وليست معيارا نقديا بل بعضهم قال ما أسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه فهو لم يعتبر مذهبه الفكري أو العقدي منقصا من جودة شعره بل شهد له بالجودة ومنهم من ذم شعر لبيبد فنيا وإن أعجب به موضوعيا لكنه اعتبره رحى بذر .

4- أن تأثر النقاد بالقيم الإسلامية كان واضحا في ممارساتهم النقدية للشعر والشعراء في العصر العباسي وإن لم يعتبر معيارا فنيا للشعر .

الهوامـــــــــــش :

(1) اختلف في نسبة هذا البيت لقائله فينسب إلى طرفة بن العبد وهناك من ينسبه لحسان بن ثابت ومنهم من ينسبه لزهير ابن أبي سلمى

(2) ديوان البحتري – تحقيق حسن كامل الصيرفي– دار المعارف مصر – الطبعة الثالثة : قافية ال (باء)

(3) تاريخ النقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري – إحسان عباس ـــ دار الثقافة بيروت الطبعة الخامسة – 1986م : 189

(4) الشعر والشعراء - ابن قتيبة – دار الثقافة – بيروت – الطبعة الثالثة 1983م : 1 : 137

(5) عيار الشعر لابن طباطبا العلوي – تحقيق الحاجظي وزغلول سلام – القاهرة 1956م : 15

(6) المصدر السابق : 20

(7) نقد الشعر - قدامة بن جعر – تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي – دار الكتب العلمية : 95

(8) تاريخ الأدب العربي – أحمد الزيات – دار الثقافة – بيروت – لبنان - الطبعة التاسع والعشرون 1986م : 299

(9) الصناعتين لأبي هلال العسكري – تحقيق مفيد قميحة – دار الكتاب العلمية – بيروت – الطبعة الثانية – 1989 : 154-155

(10) العمدة في محاسن الشعر ونقده - ابن رشيق القيرواني – تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد - دار الجيل للنشر والتوزيع – الطبعة الخامسة 1981م : 1: 6
(11) أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني – دار المعرفة – بيروت – تاريخ الطبع 1978م : 171
(12) ينظر المصدر السابق : 172
(13) ينظر البداية والنهاية لابن كثير 11: 273
(14) معجم البلاغة – بدوي طبانة - منشورات جامعة طرابلس – كلية التربية - الطبعة الأولى 1975م : 1 : 44
(15) عيار الشعر – ابن طباطبا : 43
(16) أسس النقد الأدبي في عيار الشعر لابن طباطبا – فخر الدين عامر - عالم الكتب – القاهرة - الطبعة الأولى 2000م : 36
(17) ينظر الوساطة بين المتنبي وخصومه – القاضي علي الجرجاني تحقيق هيثم الشاذلي – دار إحياء الكتب العربية : 376 وما بعدها
(18) ديزان المتنبي : قافية النون
(19) العمدة في محاسن الشعر – ابن رشيق : 242
(20) المصدر السابق : 244
(21) سورة المائدة : 77
(22) ينظر العمدة في محاسن الشعر وآدابه – ابن رشيق : 247-249
(23) نقد الشعر – قدامة بن جعفر : 67
(24) ينظر الصناعتين الكتابة والشعر: 294-402
(25) الصناعتين لأبي هلال العسكري : 145
(26) أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني : 217
(27) القاموس المحيط – الفيروز أبادي : مادة (عفف)
(28) القاموس المحيط مادة (مجن)
(29) العمدة – ابن رشيق القيرواني : 1 / 49
(30) سير أعلام النبلاء – الإمام الذهبي – تحقيق بشار عواد – مؤسسة الرسالة – ط:3 . 1985م : 8 / 45
(31) ينظر الموشح مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر – المرزباني – تحقيق علي محمد البجاوي – نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع : 84
(32) أسس النقد الأدبي – أحمد بدوي – نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة : 396
(33)ينظر سير أعلام النبلاء – الإمام الذهبي : 4 / 593
(34) الموسوعة الأدبية الميسرة – خليل شرف الدين – دار مكتبة الهلال -1987م – بيروت : 43
(35) أسس النقد الأدبي – أحمد بدوي : 402
(36) الوساطة بين المتنبي وخصومه – القاضي الجرجاني : 58
(37) ينظر المصدر السابق : 58
(38) ينظر نظرية النقد وتطورها إلى عصرنا الحديث – محي الدين صبحي – الدار العربية للكتاب : 14 - 15
(39) ينظر الصناعتين – العسكري : 131
(40) منهج الفن الإسلامي – محمد قطب – دار الشرزق – بيروت - الطبعة السادسة 1983م : 27